

« أولاد حارثنا » ومشكلة الشر

بقلم ماهر البطوطي

محفوظ عن مناساة الوجود الانساني كما أراد أن يسجلها . ولقد تردت هذه الرؤيا العامة لدى المؤلف كثيرا في بعض رواياته السابقة كالثلاثية مثلا ، ولكنها لم تستين في رواية ولم تنسل بها تماما الا في « أولاد حارثنا » . تلك الرؤيا التي تقوم عليها الرواية هي مشكله الشر في الوجود والوضع الانساني في هذه الدنيا . وربما كان هذا الاساس الذي فجر منه محفوظ هذه الرؤيا هو سبب بحرج الجميع من

الكتابة عنها ونحرجهم من نشرها مرة أخرى في كتاب . ولقد شغلت هذه المشكلة بال مفكرين وفلاسفة والادباء جميعا منذ بدء ظهور التفكير الديني ، ومنذ بدأ المفكرون وفلاسفون ومنذ بدأ الادباء والشعراء يعبرون عن ذواتهم . فدائما ما نشأ مشكلة من التعارض الواضح بين النظرية والواقع ، والمشكلة الدينية ليست استثناء من هذا . وفي مشكلة الشر ، يكون التعارض هنا بين ايماننا بالاله - العلة الاولى - وبين واقع التجربة ، بين ايماننا باله - الحب كل الحب والقدرة كل القدرة ، وبين سيادة الشر وعلو طالعته في الدنيا التي خلقها هذا الاله . ولو اننا كنا ننظر الى الاله باعتبار انه قوة عليا تسيطر سيطرة استبدادية وذات نزوات لا يمكن تحليلها ولا تفسيرها لما نشأت هناك مشكلة مثل هذا النوع على الاطلاق . ولكن ما دامت الصفات المتعلقة بالاله صفات اخلاقية وصفات قوة وبأس ، وما دما ننظر اليه باعتباره محبا للانسان وحاكما للكون ، لذلك تفتز امامنا المشكلة ونقف لنا وجها لوجه : اذا كانت الطيبة والقدرة الالهية صفتين ثابتتين ، لماذا يكون هناك شر اذن ؟ كما يتعين علينا أن نواجه المعضلة التي سبق أن أثارها أبيقور مرة أخرى : لو أن الاله يريد أن يمنع الشر ولكنه لا يستطيع يكون غير قادر ، ولو أنه يستطيع ولا يفعل ذلك فهو شرير ، ولو أن له كلاً من القوة والقدرة ، فلماذا يكون هناك شر ؟ وسيادة الشر تمثل حالة ضد الايمان بقدرة الاله وطيبته ، وعلى هذا يجب أن يمر ايماننا بفترة التجريب . وان ما يجعل الشقاء والمهانة في الدنيا اكثر احباطا ان معظمها ليس له معنى او غرض ، وانها تتوزع دون أي مراعاة للقيمة الاخلاقية . ولقد اشتكى « توماس هكسلي » من ذلك بقوله : « اذا كان هناك قضية مستمدة من حقائق الحياة الانسانية اتفق عليها المفكرون في كل زمان ومكان فهي أن من ينتهك القواعد الاخلاقية يتجو دائما من العقاب الذي يستحقه ، ويزدهر حال الشرير بينما الصادق الورع يشهد رزقه ، وتنزل خطايا الاباء على الابناء ، وتعاقب الطبيعة الجهول معاقبتها للخطيء المتعمد ، والالاف من المخلوقات البريئة تقاسي من اجل جريمة غير مقصودة ارتكبها انسان واحد . . . وعلى هذا فاذا حكمنا على الكون من وجهة النظر الاخلاقية فانه يبدو كونا فاسدا » . وهذه اللامبالاة في توزيع العقاب والثواب - وهو منشا عقدة المشكلة في رواية اولاد حارثنا حين اختار الجبلادي ادهم ليكون ناظر الوقف دون سبب ظاهر - هو الذي يظهر الاله بمظهر القسوة في معاملة الانسان . يقول جون ستيوارت ميل : « لو ان العدالة هي قانون كل الخلق ، وكان الخالق قادرا ، اذن لتوزع الشقاء والسعادة على الدنيا ، فيتساوى نصيب كل فرد فيها على حسب اعماله الطيبة والشريرة تماما . . . ولا ينكر احد ان الدنيا التي نعيش فيها تختلف عن ذلك تماما » .

اما حالة الانسان في هذه الدنيا التي يسودها الشر وتضطرم فيها مثل هذه المفارقات ، فافضل تشبيه لها هو تلك اللوحة الوصفية التي وردت في كتاب « كليله ودمنة » . يقول « برزويه » في ترجمته :

اما ان الحارة هي الدنيا ، وان اولاد حارثنا هم البشر ، وان الجبلادي هو الاله ، وان جبل ورفاعة وفاسم هم الانبياء الثلاثة ، فهذا لا شك فيه ولا مراء ، ومن يقول بغير هذا بعد انكر احدانا واضحه لا لبس فيها ، وأغمض عينه عن حقائق ادبية لا زيف فيها ولا بهتان ، وأوقع نفسه في مناهة يستحيل عليه معها أن يطابق بين أحداث الرواية وبين أي تفسيرات أخرى . .

ولقد اثار الرواية ضجة لا تزال تتردد اصداؤها حتى الان وبعد مرور ثماني سنوات على نشرها لأول مرة ، كما اثار حيرة عريضة بين القراء وبين النقاد الذين تعرضوا لها أكبر من تلك الضجة وأكثر عمقا . والضجة والحيرة انما جاءتا من محاولة اغفال الاحداث ، هذه المقالات القصيرة التي نشرت في الصحف والمجلات عقب صدور الرواية في كتاب ، فهي بالعرض والتقديم اشبه ، ولم تحنو على أي نقد أو تحليل . أما تحميل النص تخريجات لا تمت له بصلة ، فأوضح مثل عليها الجزء الذي كتبه الاساذ الناقد غالي شكري عن « أولاد حارثنا » في كتابه المسمى « المنهي » ، حين مس القضية الاساسية في الرواية - قضية الدين والعلم - مسافرا ، وتجاوزها الى المفهوم الذي شرع ينقد به الرواية وهو جاهز مسبق في ذهنه ، مفهوم المادية التاريخية والمنطق الجدلي ، فاذا هذا العمل الادبي الهام يتحول بين يديه - مثلما تحولت كل كتابات نجيب محفوظ الاخرى - الى وثيقة اجتماعية تصاف الى وثائق الماركسية ، واذا الناقد ينقل القارئ عن هذا العمل الى مناهات فكرية لا تمت له بصلة ولا تصيف مثقال ذرة الى بهمه له وتدوئه لاسراره .

والرواية جديدة في كل من بنائها الفني ومضمونها ، فقد كان بناؤها شيئا جديدا على الادب العربي الحديث ، ومضمونها جديدا على الموضوعات التي كتب فيها نجيب محفوظ . وحتى لا نستيق الاحكام، ساقوم الان بنقد الرواية عن طريق المقارنة والتحليل الموضوعي لشكلها الادبي وافكارها الفلسفية .

بدا محفوظ عمله في التأليف الروائي بمرحلة الرومانسية التاريخية ، حين كان يمتزم كتابة تاريخ مصر القديم في شكل روائي ، اخرج منه بالفعل « عبث الافدار » و « رادوييس » و « كفاح طيبة » ثم مات في نفسه هذا الاتجاه ليتحول بعد ذلك الى الواقعية برواية « القاهرة الجديدة » ، وظل على هذا المنوال حتى انتهاء « الثلاثية » . وقال نجيب محفوظ أنه حين ذهب المجتمع القديم ذهبت معه كل رغبة في نفسه لبقده ، واعلان انه لم يعد لديه ما يقوله أو يكتبه ، وظل على هذه الحال من عام 1952 الى 1957 « لم أكتب كلمة واحدة ، ولم تنبعث في نفسي رغبة في الكتابة ، وكنت اعتبر المسألة منتهية تماما حتى وجدتي اكتب « أولاد حارثنا » وانشرتها سنة 1959 » . جاءت اولاد حارثنا اذن بعد مرحلة انتهى فيها نجيب محفوظ مسن المرحلة الواقعية التي استغرقت كثيرا من كتاباته ، وانتهى معها اهتمامه الواقعي بمشاكل المجتمع ونقده ، واصبح يسمى نحو مدى اوسع واكثر رحابة ، فجاءت روايته التالية تجديدا شاملا في كل من الشكل البنائي الذي تقوم عليه ، والمضمون أو الخلفية الفلسفية التي تكمن وراءه . فمن الناحية الاولى ، اتجه المؤلف الى الشكل الاليجوري الذي يخط الاحداث على نهج معين سابق ، هو نهج تاريخ الرسالات الالهية الثلاث ، وهذا ما سنبحثه بالتفصيل فيما بعد .

اما من الناحية الثانية ، فتعتبر الرواية التعبير التام لنجيب

« فالتمسست للانسان مثلا ، فاذا مثله مثل رجل نجا من خوف فيل هائج الى بشر ، فتدلى فيها ، وتعلق بفصنين كانا على سمائها ، فوقعت رجلاه على شيء في طي البشر . فاذا حيايت اربع قد اخرجن رؤوسهن من اجهارهن ، ثم نظر فاذا في قاع البشر تنين فاتح فاه منتظر له ليقع فياخذه ، فرفع بصره الى الفصنين فاذا في اصلهما جردان اسود وابيض وهما يقرضان الفصنين دائبين لا يفتران ، فبينما هو في النظر لامره والاهتمام لنفسه ، اذ ابصر قريبا منه كواراة (خلية) فيها عسل نحل ، فذاق العسل ، فشغفته حلاوته والهته لذته عن الفكرة في شيء من امره وان يلتمس الخلاص لنفسه ، ولم يذكر ان رجليه على حيايت اربع لا يدري متى يقع عليهن ، ولم يذكر ان الجردين دائبان في قطع الفصنين ومنى انقطعا وقع على التنين . فلم يزل لاهيا غافلا مشغولا بتلك الحلاوة حتى سقط في فم التنين فهلك » (1) .

والنموذج الاعلى Archtypal Pattern للشر في الوجود والعبثية التي تقوم عليها الحياة وشقاء الانسان فيها هو كتاب ايوب . ويقص علينا هذا الكتاب كيف كان ايوب رجلا كاملا ومستقيما يتقي الله ويحيد عن الشر ، ورغم ذلك فقد ابتلاه الله بالشيطان فصيب عليه من نعمته واحرق حرته ونسله وخرب دياره واصابه بقرح رديء من باطن قدمه الى هامته . وكان جواب ايوب على هذه الاحداث التي لا يجد لها تفسيراً هو الجواب الذي يقدمه الدين وهو ان لله حكمة في تصرف شؤونه يقصر التصور الانساني عن ادراكها ، ولذلك فلا يجب ابداً ان يجروا احد على مناقشة اي شيء ياتي من عند السماء . وهذا المثل هو التعبير الكامل للشر الذي يصيب الانسان دون ذنب جناه وبغض النظر عن سلوكه وافعاله . ولكن هذه المشكلة مشكلة اذلية مستمرة ، وقد شغلت بال عديد من الادباء والمفكرين في العصر الحديث وكان لكل منهم نظرة خاصة بها وطريقة ذاتية في الاتجاه الذي يتخذه كل منهم نحوها . ولقد فجر دستوبسكي رايه في هذه المشكلة في رواية « الاخوة كرامازوف » على وجه الخصوص . وفيها يعترف المفكر الروسي العظيم بوجود الشر في الدنيا بل وسيادته وسيطرته عليها ، ولكنه يقبل وجود هذا الشر ويسلم بهذا الوجود ، ويقابله بضرورة ان يحب بنو الانسان بعضهم بعضاً ويتعاطفوا في مواجهته . يقول « ايفان » في هذه الرواية : « انني اقبل الله واقبل حكمته ، وهدفه ، للذين لا نعرف عنهما شيئاً . انني اؤمن بالكلمة التي ينشدها الكون ويناضل من اجلها ... ويلوح انني اسير على الطريق المستقيم الان ... الا انني في النتيجة لا اقبل عالم الله » . ويحكي ايفان ان المسيح قد عاد الى الارض مرة ونزل في اشبيلية ، الا ان المفتش العام القى القبض عليه وادعاه في السجن . ويناقش المفتش المسيح وهو في السجن في صعوبة تنفيذ الوصايا التي اوصى بها بني البشر ، لان مشاكل الانسان غير قابلة للحل ، ويهدده بانه سيضطر الى اعدامه . وفي مقابل هذا الموقف الذي يؤكد ان الشر لا حل له ، يميل اليه المسيح ويقبل شفثيه الشاحبتين ويقول له : « كلامك معقول وقوي ، الا ان حبي اعظم » .

كما تناول الفكر الوجودي الحديث المشكلة وعالجها في عديد من الاعمال الادبية التي تعبر عن اتجاهات معينة حيالها . تناولها « البير كامو » في روايته التي نال عليها جائزة نوبل للاداب « الطاعون » . و « الطاعون » من اولها الى اخرها بحث حول مشكلة الشر . وتتركز المناقشة الرئيسية عن هذه المشكلة في النصف الثاني من الرواية ، وخاصة في الفصل الذي يموت فيه الطفل البريء بالطاعون . والطاعون هذا هو رمز للشر الذي يكسح العالم بنون مبرر (2) ، الشر الذي صورته المؤلف في الرواية بانه : « قطعة الخشب الهائلة التي تلف

(1) ص ٩١ - ٩٢ كلية ودمنة ، ترجمة عبد الله بن التفع عن بيدبا الفيلسوف الهندي . طبعة مكتبة الهلال بالقاهرة .

(2) يقول المؤلف : « ولكن ما معنى هذا ؟ ما معنى الطاعون ؟ انها الحياة ، هذا كل ما في الامر » ص ٣٨٩ ، الطاعون ، ترجمة كوتر عبد السلام . طبعة عالم الكتب .

وتدور فوق المدينة تخبط خبط عشواء ، ثم ترتفع ثانية وقد لظختها الدماء وتسنم تبشر الامم البشري من اجل بسدر ينتهي بحصاد الحقيقة » (٣) .

هذا الشر لا سبب له ، ولا يدرك احد من الذين يتلقون ضربانه مدى استحقاقهم له ، فهم « مقضي عليهم بسجن لا يمكن تصور مداه من اجل جريمة غير معروفة » (١٢٧) . ويوضح « كامو » ان الشر اعمى ، وانه قد ياتي من اقرب الاصدقاء ، وكما صور في روايته « القريب » اصدقاء البطل « ميرسو » يحاولون انقاذهم من تهمة القتل بالسهادة في صفة اثناء محاكمته فيزيدون من التصاق التهمة ضده دون ان يقصدوا ذلك ، يعود فيقول في « الطاعون » : « ان الشر الموجود في العالم يرجع كله تقريبا الى الجهل دائما ، وان طيبة النفس اذا لم تتوفر لها الاستنارة قد تؤدي الى نفس الاضرار التي تنتج عن الشر » (١٦٨) . وتتجلى عبثية العالم وسيادة الشر فيه ولامفقولية هذا الشر في المشهد الذي يصيب الطاعون فيه طفلا صغيرا بريئا ويموت به . وفي ثنايا الاوصاف المرهفة والتفاصيل الدقيقة التي رسم بها « كامو » هذا المشهد تأكيد لهذه العبثية وتلك اللامفقولية . يقول

المؤلف عن « تارو » و « ريو » بطلي الرواية ، و « ريو » هذا هو الراوي ويقوم مقام « كامو » نفسه : « لقد شاهدا من قبل اطفالا يموتون ، فان الهول الذي بدأ منذ اشهر لم يكن يتعب نفسه في الاختيار ، ولكن لم يحدث قط لهما ان تتبعا الامم الضحايا بدقة بدقيقة كما يفعلان الان منذ الصباح . ولا شك ان الامم التي صبتها الاقدار على هؤلاء الابرياء لم تكف يوما عن الظهور في اذهانهم بمظهرها الحقيقي ، أي على أنها فضيحة . ولكنهما - حتى الان على الاقل - كانا يشعران بتلك الفضيحة بصورة تجريدية على نحو ما ، لانهما لم يكونا قد رأيا ابداً عن قرب ولادة طويلة احتضار أحد الابرياء . وفي تلك اللحظة أخذ ان طفل يتلوى من جديد ، كما لو كانت افعى قد عضته في معدته ، وراح يش آتينا خافتا . وظل هكذا نواني عديدة ، غائر الجسم فريسة للرعشة والاهتزازات التشنجية كما لو كان هيكله الواهي ينحني تحت ضغط ربح الطاعون العاتية وينحطم تحت نوبات الحمى المتكررة . وانتهت تلك الازمة ، وبدأ الطفل يسترخي قليلا ، وبدأ ان موجة الحمى قد انسحبت وتركته يلهث على شاطئ رطب مسمم قد تشابهت فيه الراحة والموت ، ولما عاودته موجة الحمى من جديد للمرة الثالثة وبعثت في جسمه شيئاً من الاضطراب ، كور الطفل جسمه وتراجع الى نهاية الفراش وسط آلام التهاب الذي يعرفه . واخذ يهز رأسه في جنون وهو يقذف بقطائه بعيداً عنه وتدفقت الدموع الفزيرة من بين جفونه الملتهية ، واخذت تسيل على وجهه الجامد . وفي نهاية الازمة ، كانت قد خارت كل قواه ، فضم ساقيه اللتين برز العظم منهما وذراعيه اللتين ذاب ما عليهما من لحم خلال هذه الساعات الثماني والاربعين . وبدأ وسط سريره المخرب كما لو كان مصلوباً غريب الشكل » (٢٧٢ - ٢٧٣) .

ويشابه هذا الوصف المعجز لحالة الطفل البريء الذي يعاني من اثار المرض المخيف وصف معاناة المسيح على الصليب ، ودق مسامير الصلب في يديه وقدميه وتركه يتمذب فوق تل الجلجلة .

ويقول الطبيب ريو عن الطفل : « اذا قدر له ان يموت ، فانه سيكون قد عانى من العذاب اكثر مما عانى غيره » (٢٧٤) . ويموت الطفل فيلنفت ريو الى الاب « بانلو » الذي يمثل الدين ويقول له : « اما هذا على الاقل فانه كان بريئا ، وانت تعرف ذلك جيدا » (٢٧٧) . وحين يقول له الاب : « اني افهمك جيدا ، ان هذا يدعو للثورة لانه يتجاوز ادراكنا ، ولكن قد يكون من الضروري ان نحب ما لا نستطيع فهمه » يرد عليه ريو : « لا ايها الاب ، ان فكرتي عن الحب بعيدة عن ذلك ، وسأظل حتى الممات ارفض ان احب هذا العالم الذي يلقي فيه بالاطفال تحت عجلات التعذيب » .

ويأتي بعد ذلك الفصل مباشرة رد كامو المباشر على تلك المشكلة ، وهو نفي وجود الالهة . وقد عبر عن ذلك بالحيرة والشك اللذين انتابا « بانلو » رجل الدين بعد مشاهدته معاناة الطفل البريء ، فيرى انه اذا كان من العدل أن يصق الرجل الماجن ، فليس هناك ما يبرر تعذيب الطفل ، وأنه ليس هناك على ظهر الارض ما هو أهم من تعذيب طفل ولا من الشفاعة التي يجرها وراءه هذا التعذيب أو البحث عن المبررات التي سافت اليه . ومن ذا الذي يستطيع أن يؤكد أن خلود احدى المتع يمكن أن يكون عوضا عن لحظة من عذاب البتيرة ؟ كلا ، فسيبقى الاب وجها لوجه امام المشكلة وفاء لتلك المفارقة التي يعتبر الصليب رمزا لها ، سيبقى وجها لوجه امام عذاب طفل . وبعد تلك الحيرة يمرض الاب بحمى غريبة ويرفض العلاج ويموت آخر الامر . ويحرص كامو على أن يبين أن الاب لم يموت من الطاعون المنتشر في أرجاء المدينة، ليثبت أن موته قد جاء نتيجة طبيعية لمجزه عن الاسمرار في الحياة مع كل هذه المظاهر التي نبتت تناقضا واضحا مع كل ما يؤمن به ويمتد فيه . وهذا الموت هو رمز كامل لبطلان الاعتقاد في وجود الالهة ، أو هو الصيحة الجافية المنكرة التي أطلقها نيتشه قبل ذلك معلنا موت الالهة ، ورددها نجيب محفوظ بعد ذلك مع تغيير جوهري في النتيجة ، كما سنبين فيما بعد .

ولكن « كامو » - ككل مفكر أصيل - اذ هو يعترف بوجود الشر وغلبته على حياتنا ، لا يقف امامه مكتوف اليدين مستسلما ، بل هو يقدم اتجاهه ويوضحه في الرواية . واتجاه كامو نحو المشكلة هو الالتزام بكفاح الشر . يقول الراوي في الطاعون : « وقد دأب كثير من الهداة الجدد في مدينتنا يقولون أنه لم يعد هناك جدوى من أي شيء ، وأنه ينبغي أن نجثو على أقدامنا . وكان « بارو » و « ريو » واصدفاؤهما يجيئون على ذلك بما ساءوا ، ولكن النتيجة كانت دائما ما قد عرفوه ، وهي أنه يجب علينا الكفاح بطريقه أو بأخرى ، ولا ينبغي أن نجثو على أقدامنا ، المهم هو حماية أكبر عدد ممكن من الناس من أن يموتوا ، ومن أن ينوفوا الفراق الابدي ، ولم يكن هناك سبيل الى هذا الا سبيل واحد ، وهو مكافحة الطاعون ، ولم تكن هذه حقيقة مرضية ولكنها منطقية » (١٧٠) . ويستترك كامو مع دستوفسكي في تفديس الحُب والمعاطف ليقفا في وجه الطاعون الذي يجتاح الدنيا ويظف الانسان بلهيبه . ففي محادثة بين « رامبير » و « ريو » يقول الاول : - « اه ! لست أدري ما هي مهنتي على وجه التحديد ، وربما كنت مخطئا لانني اخترت الحُب » . وواجهه ريو يقول بقوة : « - كلا ، لست مخطئا » (٢١٤) . كما يقول ريو بعد أن سألته بارو عما اذا كانت لديه فكرة عن الطريق الذي ينبغي اتباعه للوصول الى السلام « - نعم ، انه النطاق » (٣٢٤) .

وفنان عظيم آخر دارت معظم كتاباته على هذه المشكلة هو « ارنست همنغواي » . فاذا ما اتعلنا آليه نجد ان الحالة تخلف والنظرة تخلف . همنغواي - على نقيض كامو - لا ينكر وجود القوى السماوية ، ولكنه ينتهي الى نفس النهاية التي انهى اليها ، ولكن نمرده على السماء لا ينبج عن أي نزوع عفلاي بل صدر عن الإرادة التي رفضت الإيمان به . ومع اعتراف همنغواي بوجود العلة الاولى للكون فانه يحدد موقفه منها بالنظر الى مشكلة الشر تلك ، فيقرر أن هذا الشر صادر عن الالهة . وقد اثار همنغواي اتجاهه هذا في روايته الشهيرة « وداع للسلاح » . ويتركز الشر عند همنغواي في الموت ، الموت الفجائي العنيف الذي يحيل الحياة الى عيشه والوجود الى لاعلانية مطلقة . وهو يصور لنا الحياة في هذه الرواية شرا لا طائل من ورائه ، فبعد أن جاهد بطلها « فردرك هنري » وناضل في سبيل الفوز بحياته الهائنة ممثلة في شخص حبيبه كارين ، تموت بين يديه في لحظة وتذهب دون أن تترك وراءها شيئا ولا حتى وليدها . . . أي بلا أي أمل في بعث جديد . والمهم هنا أن كاترين هذه تموت بلا سبب يدعو الى موتها على الاطلاق ، وهذا ما يوضح احساس همنغواي بمشكلة الشر ، وتساؤه ذلك السؤال الازلي : « ما سبب ذلك ؟ » .

يقول همنغواي في « وداع للسلاح » : « حين يواجه الناس العالم بقدر وافر من الشجاعة فان على العالم أن يقتلهم لكي يكسرهم . وهكذا فانه يقتلهم . ان العالم يكسر الناس جميعا ، وبعد ذلك ينشئ لكثير منهم في مواطن الكسر أنسجة عظيمة جديدة . اما اولئك الذين يستمعون على الكسر فانه يقتلهم . انه يقتل ذوي الصلاح البالغ ، والطف البالغ ، والبسالة الباقية على حد سواء . فاذا لم تكن واحدا من هؤلاء ففي مسورك أن ثقب أنه سوف يقتلك ، ولكن لن يكون ثمة أيما داع للمجلة » (٤) . ثم يحكي بطل القصة كيف أنه كان يوما في المسكر يذكي النار بقطعة من الخشب ضخمة يفتيها النمل من كل اطرافها ، وما أن بدأت الخشبة تشتمل حتى اندفع النمل نحو المركز حيث كانت النار ، ثم ارتد على اعقابه نحو الطرف الاخر ، حتى اذا أصبح هذا الطرف مغطى كله بالنمل سافط في النار . وخرج بعضه من النيران وقد احترق جسده ونشوه ، ولكن الكثرة العظمى منه سقطت في النار . ولم يفعل البطل شيئا ، وكان امامه أن يرفع قطعة الخشب وينظفها من النمل قبل أن يدفح بها الى النار ، وهذا هو السلوك الديني الحميد ، ولكنه لم يفعل الا أن ذفد الخشبة بكوب من الماء لم يزد النمل الا احتراقا وعذابا . والرمز ظاهر في تلك اللوحة الوصفية كلها ، اما الفامض فيها فشخصية البطل الذي افاد النقاد بعد ذلك ان المؤلف انما قصد به في هذا المشهد القوى العليا التي تتلذذ بمذابات البشر ولا تابه لها .

ماذا اذن يقدم همنغواي امام هذا الشر للقوى العليا ؟ انه يقدم ما يقدمه دائما في قصصه ورواياته ، يقدم مجادلة الانسان وعزمه وتحمله كل هذه الشرور والمصائب بصلاية وأمل ، هذه الصلاية والمجادلة التي تصفي على الانسان صفات نجعله يرتفع الى مصاف الالهة ذاتها وان يكن مغلوبا مهزوما . ومثله في هذا مثل الصجوز الذي صارع قوى الشر في عرض المحيط ، ثم عاد يخفي حين بعد أن تكالبت عليه قوى الشر وأفقدته رزقه كله ، ولكنه لا يتحطم بل يفكر في حياته المقبلة والاستعداد للخروج في غزوة صيد جديدة بعد أن يتجهز لها مرة أخرى . وشعار همنغواي في هذا الامر انه قد يهزم الانسان ولكنه لا يتحطم أبدا . وهذه المجادلة الفريدة التي لا يحدها حدود والتي نبت في الانسان نبئا جوهريا أصيلا هي التي تمنح الانسان قوة تمكنه من مجابهة الشرور بتمرة الحقائق وتفهمها .

كل هذه المقارنات تمهد وتوضح للموقف الذي اتخذته نجيب محفوظ من مشكلة الوجود الكبرى في روايته الفاصلة « اولاد حارتنا » . فماذا يقول نجيب محفوظ اذن ؟ وما هو اتجاهه ؟

لقد عجز نقاد الرواية عن فهم المفزى الذي عناه المؤلف من وراء بصوير سقوط ابليس ثم زلة آدم ثم الحركات الدينية الثلاث وترتيبها الواحدة وراء الاخرى . ما هو الغرض من تقديم مثل هذا البناء ، من الانقراضات الدينية التي حاولت أن تطهر النفوس الانسانية من الاوشاب التي غطتها والادران التي علفت بها ، ثم يعود الحال بعدها الى ما كان عليه ان لم يكن اسوا ؟ لماذا ركز المؤلف على دور الرسالات السماوية في هذا العالم ، وقدمها في تفصيلاتها الدقيقة ؟ الرد هو لتصوير حرب الخير ضد الشر ، حرب النور ضد الظلام ، حرب الحكمة ضد الجهالة . كان الاوان قد آن لمحفوظ في مرحلة رواية « اولاد حارتنا » أن ينمط الى المجال الفلسفي ويفجر في رواية أو بالاحرى في « رؤيا فلسفية » المشكلة التي طالما ألح اليها في رواياته السابقة وألح اليها في رواياته اللاحقة ، المشكلة الخالدة ، مشكلة الشر . وفي اعتقادي ان الوسيلة الكبرى المباشرة التي اعتمد عليها نجيب محفوظ في تبيان واظهار ابعاد المشكلة هي الشكل والتركييب البنائي للرواية . ولنتتبع ذلك في تفصيلات الرواية لثرى في كل سطر اقتبس منها رأي المؤلف واتجاهه .

(٤) ص ٣٦١ ، وداع للسلاح ، ترجمة منير البعلبكي ، دار العلم

للملايين ، بيروت .

وسوءا ، ففي كل يد مخلب وفي كل لسان سم ، وفي القلوب الخوف والصفائف ، اما الهواء النقي ففي خلاء المقطم او في البيت الكبير حيث ينعم الواقف بالسلام وحده « . (٢٢٨) . وحين مات جبل جاء زنفل ثم خنفس ، وعاد الناظر والفتوات الى التربع على العرش والى اضطهاد الاتباع وبخسهم حقوقهم كانوا لم يظهر من يسمى جبل ، او كما يقول المعلم شافعي ابو رفاعا : « ... الحقيقة ان جدنا في البيت اعتزل ، وان ناظر وقفه برقع الوقف استأثر ، الا ما يهب للفتوات نظير حمايته ، وزنفل فتوة آل جبل يتسلم نصيبهم ليدفنه في بطنه ، كان جبل لسم يظهر في هذه الحارة ، وكأنه لم يأخذ عين صديقه ديس بعين المسكين كميلها « . (٢١٥) واستمرارية الشر يعترف بها الجبلوي نفسه في لغائه مع رفاعا : « اما جبل فقد قام بمهمته وكان عند حسن الظن به ، ولكن الامور ارتدت الى اقبح مما كانت عليه « . (٢٤٧)

وحاول عرفة ان يعيد ايقاد شعلة الخير بين البشر ، وهو اذ ينجح في الحارة فانما يعني ذلك نجاح ارائه ومبادئه في الدنيا ، وقد (تمخضت المقابلة عن عهد جديد في الحارة ، فقد اعترف بالرفاعيين كحي جديد مثل حي جبل فيما له من حقوق وامتيازات ... وحظي رفاعا في موته بما لم يكن يعلم به في حياته من التكريم والاجلال والحب حتى سار قصة باهرة يرددها كل لسان وتتفنى بها الرباب « . (٣٠٤) واستبشر الناس بعد رفاعا خيرا ، واستقبلوا الحياة بوجوه مشرقة ، وقالوا بثقة واطمئنان ان اليوم خير من الامس ، وان الغد خير من اليوم . ولكن آفة هذه الحارة هي النسيان ، فقد ذهبت جهود رفاعا ايضا ادراج الرياح ، وما ان حل عهد قاسم - ثالث الانبياء الداعين الى الخير - حتى كان الشر قد اطبق بانياه على الدنيا من جديد . وحين نتأمل افتتاحية جزء « قاسم » من الرواية ندرك كيف استغل نجيب محفوظ افتتاح كل جزء من اجزاء جبل - رفاعا - قاسم - عرفة بفقرة تبيّن سوء الحال مما يؤدي الى اقامة نظرية استمرارية الشر وازليته فسي الاذهان . ففي ايام قاسم « لم يكده يتغير شيء في الحارة . الاقدام ما

يفتتح الجزء الخاص بجبل (موسى) وحال الحارة بانسنة والبشر فيها على أسوأ الاحوال الممكنة . ويتساءل الراوي « كيف انتهى الامر بحارتنا الى هذه الحال ؟ » ويجيب الرد « لقد وعد الجبلوي ادهم بان يكون الوقف لخير ذريته . وشيبت الربوع ووزعت الخيرات وحظي الناس بفترة من العمر السعيد . ولما أغلق الاب ابوابه واعتزل الدنيا ، احذى ناظر الوقف مناله الطيب حيناً ، ثم لعب انطمع بقلبه فتزع الى الاستئثار بالربع . بدأ بالمخالطة في الحساب والتفتير في الارزاق ثم قبض يده قبضا مطمئنا الى حماية فتوة الحارة الذي اشتراه . ولم يجد الناس بدا من ممارسة أحقر الاعمال وتكاف عدهم فزاد فقرهم وغرقوا في البؤس والفاذرة . وعمد الافوياء الى الارهاب والضعفاء الى النسول ، والجميع الى المخدرات . كان الواحد يكده ويكده نظير لقيمات يشاركه فيها فتوة ، لا بالشكر ، ولكن بالصنم والسب والفتن . الفتوة وحده يعيش في بحبوحة ورفاهية ، وفوق هذا الفتوة الاكبر ، والناظر فوق الجميع ، أما الاهالي فتحت الاقدام « (٥) .

هكذا بدأ الحال ، هكذا زرع الشر اول بذوره في الدنيا ، ثم نبتت وقرعت ، فضرب باطنابه في كل مكان . ثم يصور المؤلف محاولات الاصلاح وتغيير هذا الشقاء والبؤس وانشر الى خير وسعادة . فجاء « جبل » أولا يحاول تغيير الاوضاع وادخال الخير الى النفوس واشاعة الروح الجديدة في الاحوال السائدة في ايامه . وكانت وسيلته جبل الى هذا التغيير تختلف اختلافا جوهريا عن وسائل من تبعه من البشرين . كانت وسيلة جبل وسيلة مادية في جوهرها ، فقد التزم بالمجاهدة والمحاربة من أجل انتزاع حق عشيرته من الوقف ، كما كانت عدالته مبنية على العدالة المادية التي نصر على الانتقام للمظلوم من الظالم بمثل ما وقع على الاول من ظلم . وقد استعان جبل لتحقيق بغيته بكل انواع الحيلة والدهاء والقوة ، وهذا يتناسب مع ما أتى يشير به قومه من نعيم وان يفيء عليهم من نصيبهم في ربع الوقف . ثم جاء رفاعا بعد ان ساء الحال بالناس مرة أخرى وعادوا الى سابق عهدهم ان لم يكن أسوأ ، ولكنه جاء بوسيلة أخرى مخالفة تماما لما جاء به جبل ، جاء برسالة الخير للناس اجمعين .. وكان جبل قد قصره على عشيرته فقط فبسطها رفاعا للبشرية كلها ، وكان جبل يدعو لملكة الارض والتمتع بأموال الوقف ، فدعا رفاعا الى نيل المال وبشر بملكوت السماء . وكان جبل يقول العين بالعين والسن بالسن ، فقال رفاعا من ضربك على خدك الابن فأدر له خدك الايسر .

جرب جبل « الارضية » علاجا أبديا لشرور الحياة ، فلم تجد نفعا ، وجرب رفاعا الروحية علاجا لها ، فباعت هي الاخرى بالفضل . وحين جاء قاسم كان الحال قد عاد الى ما كان عليه من سوء ومسن اضطراب ، ومن تملك الناظر والفتوات الامور ، بينما يزرع البشر تحت انتقال الذل والنفاق والشر . جاء قاسم يحاول علاج داء البشرية الزمن ، وكان دواؤه مزيجا من وسيلتي جبل ورفاعا ، أخذ عن جبل المملكة الارضية فاوصى بها خيرا ، ونادى بما نادى به رفاعا من جنات النعيم في السماء للمنفقين . واتخذ في سبيل تنفيذ ارائه بمبادئ الروح والارض فاوصى بالاخاء والتسامح ، ونصح بالتسلح والقوة في مواجهة الاعداء . كان قاسم « التركيب » Synthesis الذي قال به هيجل ، وجاء التركيب القاسمي من « فضية » Fthesis جبل و « نقيضة » Anti Fthesis رفاعا . فهل أفاد ذلك في تحقيق الخير الاسمي ، وهل نجح كل هذا في جعل الارض صورة من السماء؟ وهل دام الحال على ما كان عليه ؟

في كل مرة ، كان الحال يعود أسوأ مما كان . فبعد النور الذي جاء به جبل ، يقول الراوي انه كان يمكن ان يستمر الخير على الارض ، « لولا ان آفة حارتنا النسيان » . وافة النسيان هذه تسبب انتكاس كل مثل طيب . وحين كان الزمن زمن رفاعا حتى عاد كسل شيء شرا

(٥) ص ١١٦ - ١١٧ ، « اولاد حارتنا » ، منشورات دار الاداب ،

بيروت ، ١٩٦٧ .

صدر حديثا :

الاشتراكية العربية

بين النظرية والتطبيق

بقلم

عبد الهادي الفيلسفي

دراسة جدية مدعومة بالوثائق والارقام عن منجزات الاشتراكية في الجمهورية العربية المتحدة والجمهورية العربية السورية والجمهورية الجزائرية

الثن ٣٠٠ ق . ل

منشورات دار الاداب

زالت عارية تطبع آثارها الغليظة على التراب والذباب ما زال يلهو بين الزبالة والاعين . والوجوه ما زالت ذابلة مهزولة ، والشباب مرفوعة ، والسننم تتبادل كالتحيات ، والنفاق يصم الأذان » . (٢٠٩) وواسم ذاته ، ناجى نفسه وعسرف بسيادة الشر ، وراى في خطرانه كيف كانت نهايه النبيين من اهل الحاره مؤسفة داما . وحاول فاسم في ايامه ان يصمد نيار الشر ويزرع الخير حتى قال كثيرون مسن اولاد حارنا ان الحاره قد آن لها ان تبرأ الان من آفة الشيطان ، ونها سميراً منها الى الابد . وهذا الاعتماد هو المعادل الايجوري او هو الرمزي لتحقيقه ان النبي محمد هو خاتم الرسل والانبياء .

هكذا يصور لنا نجيب محفوظ صراع البشريه ضد الشر طـوـال هذه العصور ، منذ جبل حتى فاسم ، وفي كل مرة كان يهزم الانسان ويسود الشر ويمود الخال كما كان عليه سابقا . والشر هنا كان دائما يحضر في الانسان وفي عاداته ونظمه الاجتماعية ، فان ما كان يسبب العودة الى الاحوال السيئه دائما هو نفوس الناس وبطاعتها ، ثم سيطره بعض منها على بعض واستنارتها بالسلطه وبانحطام مما يجدها في صروف يسمع لها بان تصطهد الاخرين وتسلط حقوقهم . وهذا السر سر انساني يتعلق بالطبيعة البشريه ويزرع الخرد الى الحكيم والى يستخرج من الاموال . ولدن هذا البشر الارضي - ان صح هذا التعبير -

ان شو الا نموذج مصمم لئلا نلج ، مسال البشر الميثاقيني ، السر الازلي المتصل في اساس اوجود . وقد اظهر نجيب محفوظ هذا الجانب من السر في الصمت الذي يظفي اعلى الاولي . لقد عرف الوقت بوجود الاله ، باعتباره بوجود الجيدري ، ولكنه حدد موقفه منها في عبارات وفي نواتج ذيره في الروايه . يقول الراوي « ابيس من المخرن ان يكون لنا جد عمل سد الجد دون ان نرانا ان ابيس من العريب ان يخفي هو في سد البيت الجير المنق وان يعيس نحن في الرباب » . (٦) ثم هناك موقف ازره الازلي في التاريخ ، وهي ما نشأ عنها السر وانجس منها ابيس . وهذه الزلسه قد سمجها الجيدري نفسه باختيار ابته ادمم ثيدير ، لوسم بيايه عنه . وهو قد

احسار ادمم وقدمه على الابن ، الاثر ادريس - دون اي سبب طاهسر مفهوم . رمس عبارات : « يقول في عدم اكرات » و « فاطمه الاب برود » التي يردد ذكرها في رسف الجيلادي في هذا الموقف ، اتجاه نجيب محفوظ من شعوره بجبروت الاب وسيطرته وسيئته ، خاصة اذا علمنا ان المؤلف يستخدم « المسطره والبرجل » في كتابه عبارات مؤلفاته . وسوف يتضح هذا الاتجاه مسن الاوصاف التالية لجيلادي التي يأت من ابعها بعضها وراء البعض ترسم المنسى الكامل لهسا والمقصود منها دون تعليق ، فهي ابلغ من اي تعليق . يقول الراوي عنه حين يتشم ادمم لآرامر الجيدري : « اسه على جبرونه كان يستخفه

طرب النساء » . (١٨) ويجول في ذهن ادمم عن ابيه « لماذا كان غضبك كاتار تخرف بلا رحمة ؟ لماذا كانت كبرياؤك احب اليك مسن لجمك ودمك ؟ وكيف تتمم بالحياة الرغيدة وانت تعلم انسا نداس بالافدام كالحشرات ؟ والغو واللين والسامح ما نشأها فسي بيئك : » (٥٥) ويردد ادمم قوله : « وهذا الاب الجبار كيف المسيل الى اسماعسه انيني » (٥٩) ويعمد ادريس الى اغاظته فيقول له « وان اباك ليسمع الصراخ كما سمعه ولكنه عاود النوم كمن لا قلب له » . (٦٦) ويعج الانباء عيونهم على الحقيقة الرهيبة ، فيقول همام لقدري : « ان اباسا يكبح وراء عربه واما نكد طوال النهار وشطرا من النيل ، ونحن نغاسر الانعام حفاة شبه عراة ، اما هو (الجيلادي) ففابع وراء الاسوار ، بلا قلب ، ممنوع بتعيم لا يخظر على بال » . (٧٠) ويتخير جبل هو الاخر من هذا الصمت : « وحارنا لم نعرف يوما العدالة او السلام . هذا ما قضى به عليها منذ طرد ادمم واميمة من البيت الكبير ، الا نعلم بذلك يا جيلادي ؟ ويبدو ان اظلم سنشمت كثافة ظلماته كلما طال بك السمكوت فحنى متى نسكت يا جيلادي ؟ الرجال سجناء فسدي البيوت والنساء يتعرضن في الحارة لكل سخريه ، وانا امضغ المهانة من صمت » . (١٢٦)

ويسال « حمدان » « جبل » بعد لقائه الاخير مع جيلادي : « ألم تسأله عما يمنعه من اجراء العدل بنفسه ؟ اذ عما جعله يعهد بالنظارة الى قوم لا يحسنون القيام على حقوق الناس ؟ » (١٧٩) ويقول عبدة زوجة المعلم سناضي ابي رفاعه انه في هذا البيت « جندك صاحب هذه الارض لها وما عليها ، الخير حيره والفضل فضله ، ولولا عزلته لملأ الحاره نورا » . (٢١٨) وحين يقول جواد لرفاعة عن الجيلادي : والله لسو فتح ابوابه ما بقي احد من اهل حارنا في داره العذرة ، « تقول « ام بحارنا » . « لتفعل مثله ، فانه لا يسفل بنا نفسه » . (٢٢٠ - ٢٢١) ويقول رفاعه نفسه : « اين انت يا جدي ؟ لماذا لا تظهر ولو لحظة ! لماذا

لا تخرج ولا مره ؟ لماذا لا تسلم ولو كلمه ؟ الا ندري ان كلمة منك تعير حارنا من حال ابى حال ؟ ام يرضيت مسنا يجري بهسا ؟ » (٢٢٤) ويستبين هذا الاتجاه تمام الاستبانة من مشهد مقبل رفاعه : « ومضى حذرسته نحو المخرن بحداء بسور البيت الجير برقع رفاعه عتيه الى البيت لكنه راه مظلم كالسماء . وطلت عينسا رفاعه مرفوعتين نحو البيت . برى هل يدري جده بخانه ؟ ان لطمه منه يستطيع ان تفضده من محالب هولاء الجبارين ورد عنه يندهم . انه قادر على ان يسمهم سونه لما اسمعه اياه في هذا المكان » . (١٦٤) ولكن القسا يقولون رضاه اسبح ، بصلاب ريشي المقبول بالهاتف من اعماقه « يا جيلادي »

بما سح السميح الى السليلب : « الهي ، الهي ، لمساذا تركني » . وراسم سو اخر يقول له زوجته حين يجبرها ان الجيلادي قد احمصه برسائسه . « ولماذا لا يحقق ارادته بنفسه وهو صاحب الوقت وسيسد الجميع : » (٢٥٥) وهو نفسه : « مد بصره حذل القضاء حتى استقر على البيت الجير ، بيت الجيلادي ، العارق في صممه ذنه لا يبالي بصراع البناء من اجله » (٢٦٦) وفي ايام عرفه لذلك يظل هذا الاتجاه شائدا ، فيقول « سدرون » . « يا جيدوي ، حتى مسى نلزم الصمت والاحصاف . وصايك مهملة وامولك مسميه ، انت في اواقع سرق لنا يسرق احفادك يا جيلادي . . . يا جيلادي الا تسمعني ؟ الا ندري بمسا حل بنا ؟ لماذا عاقبت ادريس وكان حيرا الف مره من فتوات حارنا ! يا جيدوي ! » (١٧٥) ويقول عرفه هو الاخر : « هل سمعت عن احفاد مننا لا يردن جدهم وهم يعيشون حول بيئه اطلق ؟ وهل سمعت عن راحف يعيب لعابنون بوتعه على هذا النحو وهو لا يحرك ساكنا ؟ » (٢٢٢)

مما نقدم يمكن ان نستخلص بوضوح الاتجاه السدي يقفه الراوي من مشكلة القنه الاولي . ان ما يحيره اثر ليس السر الذي قد يكمن فيها ، ولكنه الصمت . انه يعرف بوجود الالهة - خلافا لابير كامو - كما انه لا يعرف كهمنفوي بان السر هو السماء ، وانما هو الصمت اللام الذي يتير لديه التساؤل . واتجاهه من موقف علاقة السر بالالهة هو موقف اللادريه ، وهو يذكرنا بما ذهب اليه ابيغور الفيلسوف اليوناني حين يذكر ان الالهة موجودة لا شك في ذلك ، غير انها قد اشغلت عن البشر باعمالها الخاصة ولم تعد نابسه لهم ولا يعيرهم أي المقات ، منهمكة في سعادتها الخاصة .

واضح اذن ان الدين في رأي نجيب محفوظ لم يتجح في مدواه امراض البشر وفي التقليل من وطاة الشر في دنيانا الارضية . لقد ساتب على الدنيا ثلاث من الرسل السماويين يحاول كل منهم بطريقه ان يقدم الدواء ، ولكن جهودهم كلها ذهبت عبثا وطارت مع الرياح . وآية هذا القشل اللام واضحه في افتتاحية الجزء الرابع من الرواية بعنوان « عرفة » ، اذ نجد انه بعد جبل ورفاعة وفاسم ، عاد الخصال كما هو لم يغير . وبعد ان قال كثيرون في عهد فاسم ان حارنا قد آن لها ان تبرأ من آفتها ، نجد في افتتاحية « عرفة » ان « المتامل لحال حارنا لا يصدق ما تقول الرباب في الفهوات . من جبل ومسن رناعه ومن فاسم ؟ واين النار التي بدل عليهم خارج نطاق القهوات ؟ اما العين فلا ترى الا حارة غارقة في الظلمات وربابا سفى بالاحلام . وكيف آل بنا الامر الى هذه الحال ؟ اين فاسم والحارة الواحدة والوقف المبدول لخير الجميع ؟ وماذا جاء بهذا الناظر الجشع وهؤلاء

قتل الجبلاوي ، العلم قد قتل الالهة ، مثلما قتلهم كوبرنيكس ودارون ، الاول بهم نظرية ألوهية الارض والثاني بهم نظرية انخلق الانساني . ولكن المؤلف يقدم لنا جوهر نظريته الاصيله هنا ، فان العلم لم يكن يهدف الى قتل الدين ، او الالهة ، بل انه لا يمكنه انقيام وحده دون وجود الالهة ! هذا ما يقوله المؤلف صراحة حين يذكر ان هدف عرفة لم يكن قتل الجبلاوي ، وانما هو قد افتحم عليه مرتر سلطانه لكي يستكشف ويحل طلاسم وجوده والفازه ، كما يقوله حين يصور مدى جزع عرفه وفرعه عندما يدرك انه هو المنسب في وفاة انجبلاوي . وعند ذلك سببن حقيقة النظرية التي يلمن المؤلف اطرافها لتتضح في النهاية سكاملة متناسقة . انه يقول ان العلم وحده لا يمكن ان يعيش وان يتجج في حل مشكلات البشر ، بل لا بد ان يكون مستندا الى دعامة رفاة فور علمه بتسببه في وفاة الجبلاوي في العمل على رد الحياة اليه . وبعد وفاة الجبلاوي ، يتردى عرفة الى المكان الذي تردى فيه العلم في العصر الحديث الذي امتلا بالشك والانحد والايان بالعلم وحده دون اي قوى روحية او اي مصفدات معنوية اخرى . فعرفه بعد ذلك قد اصبح ذبلا لناظر الوقف « فدري » ، وعمل تحت امرته وطوع بناته ، اي ان العلم بدلا من ان يني الحير والسلام على الارض ولينسي البشر ، اصبح سلاحا في يد الحكام الطغاة يرهبون به الضمفاء ويمنون لانفسهم في الارض . واصبح العلم يستخدم في سبيل الشر ، في سبيل انزال الالذي بالبشر ، وافضل مثل على ذلك هو اختراع الاسلحة النووية المهلكة ، والتي يقابلها في الرواية اختراع الزجاجات التي اصيحت في يد الناظر سلاحا ارهابيا يرهب به اهل الحارة بل ويهرب به عرفه نفسه . ولا يمكن للعلم الذي سببني الحياة ويرسي دعائم الخير في الارض ان يستمر هكذا أداة للشر والدمار ، لذلك فهو لن يكون بذي فائدة في هذا المضمار والحالة هذه ، ولذلك فانه يموت هو الاخر . ان العلم الذي لا يضع نفسه في خدمة الانسان ورفاهيته يدمر نفسه بنفسه ولا يكون له من وجود . وهكذا يقتل اعوان الناظر « عرفة » وزوجته ويلقيان مصرعهما . وان طريقة قتلها تندل دلالة بالغة على ان العلم الذي لا يحسن استخدامه يكون قد دفن واهيل عليه التراب حتى لو نجح في اختراع الات التدمير والخراب .

أي علم اذن يريد نجيب محفوظ ؟ انه يذكر ان عرفة قد لاقسى نفهما كاملا بعد وفاته وان اعوانه قد بشروا به منفذا للبشرية ، فاكبر اهل الحارة ذكراه ورفعوا اسمه حتى فوق اسماء جبل ورفاعة وقاسم . عرفة هذا هو عرفة الذي ندم على وفاة الجبلاوي ، وكان يعمل على رد الحياة اليه ، عرفة الذي ادرك بشاعة خدمته للناظر واستمراره في استخدام نفيسة في يد قوى الشر . عرفة الذي اصبح مقترنا في اذهان اولاد الحارة بعد ذلك بالسلام والخير . أي علم يريسه اذن نجيب محفوظ لبشر به ؟ انه العلم المتحد بالقيم والمعتقدات المعنوية . وهكذا يصرح نجيب محفوظ عن رؤياه الفلسفية التي طالما ترددت هي الاخرى في اعماله ، اتحاد العلم والدين ، الجسد والروح ، المسادة والروح . الدين وحده لا يجدي ، والعلم الذي يقتل الدين والروح ينقلب على نفسه ولا يتجم عن الا الدمار والخسارة . وحل المشكلة هو في التوافق والانسجام بين العنصرين ، وتوافق الالوان واتساقها في قوس قزح متكامل يندمج فيه العلم والروح في تناسق يؤدي الى السلام والخير ، وهو الحل الوحيد امام البشرية ، اذ لا سعادة في الاغراق في المادة ، ولا تكامل في الاغراق في المعنويات . وهكذا يدين محفوظ ايما من الاتجاهين وحده ، ويشير بوحدة تجمعهما معا ، وهذه الوحدة هي التي ينتظرها اولاد حارتنا ، وهي لا بد منبثقة اخر الامر .

ولقد استحدثت نجيب محفوظ بهذه الرواية شكلا ادبيا قديما لا وجود له في ادبنا الحديث ، ولا اعتقد انه سيكون له وجود بعد ذلك الا فيما ندر من اعمال . هذا الشكل هو الاليجورية ، وهو الوصف الوحيد الذي يمكن اطلاقه عليها بحق ، نقد اخطأ من وصفها بالرواية التاريخية او الاسطورية او الرمزية ، فهذه كلها اشكال بعيدة عن واقع

عاد الحال كما كان اذن ، وقتل الدين في احلال الحير والسعادة على الارض ، « اما اهل الحارة فانقلبوا ، أي ما كانوا عليه في الزمان الاسود ، بد لرامه ولا سيادة ، بنهجم الغناة ونهدهم انبائيت ونهال عليهم الصمعات . وبسرت العذارة والذباب والقمل ، وكثر المسولون والمسمولون ودوو المشاهب . ولم يعد جبل ورفاعة وقاسم الا اسماء واعاني ينسدها شعراء امفاهي المسطولون » . (٤١٨)

ذا بان الدين قد قتل في هذا المجال ، فما الحل اذن ؟ مسادا يقول المؤلف في ذلك ؟ ان اجابه على هذا السؤال نعم في الجزء الاخير من الرواية ، المعنون « عرفه » . الحل اندي قدمه هو شخصيه عرفه ، المعرفه ، العلم . العلم هو الحل الذي يقدمه نجيب محفوظ علاجا لمنخله البشريه الازليه واحلالا للحير على هذه الارض وعلى نسي البشر . عرفه اذن هو الحل ، عرفه ابن النجيم والسحر الذي ابتسق لا يعرف له اب ، ابسق وبع من لدى حي الرفاعيين (اسارة السى ان العالم المسيحي هو الذي قام بصياغة العلم الحديث وتطويره) رغم ان الاحياء الاخرى نسازع اسبابه اليها . وفيه هذا العلم سبدي في قول رفاة عن حجره النبي ، حالها الى معمل علمي : « ان اي معمل ممن يحسبون انفسهم معمدن في هذه الحارة لا يستطيع ان يدرك حظوره الاشياء التي تصنع في هذه الحجرة المنممة العدره ذات الروائح الفرية ... ان عاجيب لا يحيط بها التحيال يمكن ان تخرج من هذه الحجرة ، المجانين لا يدركون قيمة عرفه الحقيقيه ، لعلم يعرفونها يوما ما ، وعند ذلك يجب ان يرحموا على ابي لا ان يعرضوا بها كما يفعلون » . (٤٦١)

هذا العلم هو الذي سينمكن يوما من القضاء على الفتوات انفسهم وتشبيد المياني وتوفير الرزق لكاهه اولاد الحارة . ورأي العلم في الدنيا والدين معروف . يقول عرفة عن دنيانا الارضية : « هذه الحارة المفرورة الجاهلة ! ماذا تدري من الامر ؟ لا شيء ، ليس لديها الا الحكايات والرباب ، وهيات ان تعمل بما تسمع ، ويظنون حارتنا قلب الدنيا ، وما هي الاماوى البلطجية والمنسولين ، وكانت في البدء مرتعا ففرا لتلحترات » . (٤٩٧) ان هذه العبرة الكوبرنيكية الدارونية عن الدنيا والارض من « التيمات » الدائمة التي تتردد في فكر نجيب محفوظ وتجد صدى دائما في معظم كتاباته ، بالاضافة الى انه يصرح كثيرا بانه قد نائر بدارون وكتابات سلامة موسى عن نظرية التطور . وكما علم عبد الجواد نفسه (وهو يمثل صورة من نجيب محفوظ) قد اصطبغ تفكيره بالنظريات العلمية اصطباغا تاما ، واصبح يرى الدنيا من خلال منظار العلم والتطور . وتذكرنا عبارة عرفة السابق اقتباسها بعبارة كمال عبد الجواد الاكثر صراحة ووضوحا عن موقف الدين والعلم : « وعن الصفوة المختارة من ابناء السماء فقد رفعا الارض الى مركز الكون وجعلوا الملائكة تسجد للطين حتى جاء اخوهم كوبرنيكس فانزل الارض بحيث انزلها جارية صغيرة للشمس ، ثم تلاه اخوه « دارون » فهتك سر الامير الزائف واعلن على الملا ان اباه الحقيقي هو جيبس فقص ، الذي يدعو للتفرج عليه في الاعياد والمواسم » . (٦)

ولكن نجيب محفوظ لا يكتفي باحلال العلم محل الدين هكذا ببساطة ، ولكنه اذ يقدم لنا العلم انما يصبغه بصبغة خاصة تتفق ورؤياه الفلسفية الخاصة ، محملا اياه معاني مختلفة كثيفة متشابكة . وهذه المعاني والرموز التي قصدها المؤلف هي ما جعلت من شخصية عرفة شخصية غامضة مفرقة في الفموض تحار الالهان في تفسيرها واستيعابها . ولا عجب في هذا ، فالجزء الخاص بعرفة هو القاعدسة التي ترتكز عليها الرواية والسماز الذي يربط بين اجزائها والقسم الذي يخلع معنى وترابا على ما سبقه من الاقسام . واذ المؤلف يريد ان يقدم لنا هذه الشخصية كما يريد ان تكون ، فانه يدخلها في تجاريب عديدة توضح لنا جوهرها في النهاية . فعرفة يتسبب في

تفيد المؤلف تماماً بسير الأريج وبه يرويه عن الشخصيات ، فلتنهم يصف من رؤياه ومن ابتكاره على أي حادثة أو على أي شخصية بما يمكنه من إثارة معنى جديد أو تحميل هذه الأحداث والشخصيات باتجاه جديد يخلع أصالة عليها . وربما كان تناوله لشخصيات دينية مقدسة هو ما جعله يحرص كل الحرص على عدم المساس بجوهرها . ولكن هذا الجمود الذي اتصفت به الأحداث والشخصيات يعوضه الفصل الأخير عن عرفة الساحر - العلم الحديث - إذ هو قد حمل به بذور فكرية نسحب جملة وتفصيلاً على كل كلمة خطها قلمه في الفصول السابقة من الرواية . على الفارئ إذن لكي يدرك الفن البنائي الفريد في أولاد حارتنا أن يتناول الفصول السابقة على الفصل الأخير كمجموعة واحدة ، يقابلها بعد ذلك فصل عرفة ، ليدرك الماهية الفلسفية التي فصدها المؤلف وأخضع البناء والتنسيق الروائي إخضاعاً تاماً لخدمتها ، وهي تلك الماهية التي أوضحناها سابقاً عند الحديث عن المضمون الفلسفي للرواية .

والى جانب هذا البناء الفريد في أولاد حارتنا ، هناك الرمز المحكم البارح . والتكلم عن الرمز في الرواية سيتيح الفرصة لايات بعض الفروض التي سلمنا بها في المقال ، وهذا هو السبب الذي سأسمح لنفسي من أجله ببعض الاستطراد عند الحديث عن رموز بعض الشخصيات المعينة . وأول هذه الرموز شخصية الجبلوي ، وهي أهم رموز الرواية ، وإذا ثبت مقابلها الموضوعي ثبتت . بالنسبة لجميع الفروض المترتبة عليه . والجبلوي إنما يرمز للالهة ، فالى جانب المشهد المعروف في بداية الرواية من سقوط ادريس (وحتى الاسم على وزن الشخصية المقابلة لها ، ابليس) واصطفاء ادم (آدم) ، ثم زلزالهم واميمة وهبوطهما الى الحارة ، هناك تلك الاوصاف التي تذكر عن الجبلوي . فماذا في هذه الاوصاف ؟ تعال مثلاً نرى ما يذكره ابناء الجبلوي في فاتحة الرواية عن ابيهم : « وما يلقفهم الا انه جبار في البيت كما هو جبار في الخلاء وانهم حياله لا شيء » (١١) وادهم يقول عنه : « لاشيء يعادل شدة ابي الراحته » (٢٦) وهي كلها اوصاف لا تخلع الا على الالهة . ومن يشك في ذلك فليرجع الى لقاء جبل بالجبلوي : « مضيت في نجوالي في ظلام دامس ، فحتى انجوم توارت وراء السحب ، وما ادري الا وانا اوشك ان اصطدم بشبح هائل ، توهمته اول الامر احد الفتوات ، ولكنه بدا لي شخصاً ليس كمثل احد في حارتنا ولا في الناس جميعاً ، طويلاً عريضاً كأنه جبل ، فامتلات رهبة وهممت واذا به يقول بصوت عجيب : « فف يا جبل » (١٧٦) وهو يقول لجبل : « اني ارى في الظلام منذ اعتدت التجوال فيه قبل ان توجد الحارة » (١٧٨) والحارة هي الدنيا والاله وحده هو الذي كان قبل ان توجد الدنيا والكون كله ملك له . ويرد ذكر الجبلوي أكثر من مرة باعتباره « ذلك الجبار الذي دان له الخلاء » ، ويقول قاسم عن حوارهم مع جواب الجبلوي : « فسألته هل يدري (أي الجبلوي) بما يجري في حارتنا ؟ فأجابته بأنه يعلم كل شيء ، وبأن المقيم في البيت الكبير يستطيع ان يطلع على كل صغيرة وكبيرة مما يقع في حارتنا » (٢٥٢) . ومن هو الذي يعرف كل صغيرة وكبيرة الا الاله ؟!

ولعل افضل الصور الرمزية التي ابداع فيها المؤلف فسي رسمه لشخصية الجبلوي الاله هي ذلك الوصف الذي يتردد دائماً كالمفهمة الغلابة *Lei Fmotif* في كل ما يتصل بمقام الجبلوي ، وصف ينسب بالسلام والجلالة والرهبة والجمال ، وهي صفات تخلع كلها على الجبلوي عند ذكره ، صفات السماء والجنان التي تحيط بالجبلوي . فمثلاً حين ذهب همام مع عم كريم بواب الجبلوي الى المنزل الكبير ليلاقيه هناك ، يقول المؤلف : « تبع همام عم كريم فاجتاز المشى تحت عريشة الياسمين متجهين نحو السلامك . بدأ الليل فسي الحديقة شيئاً جديداً ، لطيفاً رطباً منزعجاً بتشوات الأزهار والرياحين فانسكب بروعته في اعماق روحه . وامتلأ الشاب بشمور جلال وافستان ، وحين مودة عميقة للمكان ، وبانه مقبل على اجل لحظات عمره » (٨٦) وعند

الشكل الفني لأولاد حارتنا . والاييجورية هي العمل الادبي الابداعي الذي تنقل سطوره معنى اخر يتجاوز معناها الحرفي . وتتميز الاييجورية عن الرمزية بأنها اشمل من الاخيرة وتشمئ في كل ثنايا العمل الادبي وفي شكله البنائي ، اما الرمزية فهي تتحقق في وصف يقابل وصفاً اخر او في موقف يعصد به موقف اخر ، ولا تكون فسي بناء كامل جميعه . وتتميز الاييجورية عن الاسماره *Metaphor* بأنها اطول تشعباً وتتحقق في التفاصيل الدقيقة . وافضل مثال على الاييجورية في الادب العربي هو كتاب « كليله ودمنة » الذي عربيه « ابن المقفع » والفه بيدبا الفيلسوف الهندي رأس البراهمة لدبشليم ملسك الهند وجسه على السنة البهائم والطيور صيانة لقرضه فيه من انعمام وضنا بما ضمنه عن الطعام ، ونزيبها للحكمة وفنونها ، ومحاسنها وعيوبها . لذلك نجد نيه المؤلف الفارئ الى ما يلزم مطالعته مسن اتقان فرائده والقيام بدراسته والنظر الى باطن كلامه ، وانه ان لم يكن كذلك لم يحصل على الغاية منه . اما اشهر ايجوريات الابن العالمي فهي رواية « مسيرة الحاج » *Pilgrims Progress* « لجون بنيان » الانجليزي ، الذي صور فيها البطل كريستيان يحمل وزراً على ظهره وهو يسمى خارجاً من مدينة تسمى الدمار فاصدا المدينة المقدسة ، وهو يلقي في طريقه من المصاعب والعقبات الشيء الكثير ، ولكن هذا لا يتبط من همته ولا يجعله يحيد عن هدفه حتى يصل الى آخر الامر . والمدينة في هذه القصة هي الدنيا ، والوزر هو الخطيئة والمدينة المقدسة هي السماء التي تغفر الذنوب والخطايا . وهكذا انحال في كل الاييجوريات المعروفة ، فهي تكون ذات ظاهر معروف وباطن خفي يحتاج الى تفسير . ولكن هذا التفسير لا يكون بعمير على الافهام ، بل هو في متناول كل فارئ بما فيه من تطابق والتزام مع الفكرة التي يكتب المؤلف حولها .

ولكن اليجورية نجيب محفوظ تختلف اختلافاً بينا عن هذه الاييجوريات السابقة في انها لم تسج احداثاً من وهي الخيال ، انما سارت في احداثها وفق احداث تاريخية دينية معروفة والتزمت بها حتى في التفاصيل الدقيقة . وهذا التسج القصصي على منوال سابق سبق ان انتهجه روائي انجليزي شهير هو جيمس جويس فسي روايته « عولس » *Ulysses* (٧) حين كجها على منوال « الاوديسة » لهوميروس اليوناني ، فجعل كل فصل فيها يطابق فصلاً اخر ورد في الاوديسة ، وكل حادثة تشير الى حادثة اخرى في النموذج الاعلى . ولقد قصد جويس في بنائه روايته على هذا المنوال عدة اهداف ، منها ان يقدم رؤياً جديدة للعالم الحديث والانسان الحديث ، فهو حين يصور الاشياء والاحوال في عصرنا على نفس النمط الاوديسي ، يقدم لنا رؤياه عن اختلاف القيم والاهداف في هذا العصر عن العصر اليوناني القديم ، ويحمل احداث وشخصيات الرواية معاني ونظرات اشمل واعمق . فبطل الاوديسة عولس العظيم ذو الامجاد والفتوحات انقلب في رواية جويس الى ليوبولد بلوم اليهودي الضعيف الذي تخونه زوجته ولا يستطيع حيالها شيئاً ، و « بنلوبو » الزوجة الوفية المخلصة فسي الاوديسة صارت « ماريون » الشهوانية التي تخون زوجها بمناسبة وبدون مناسبة . وهذا التزاوج في النظرية هو ما يعطي « عولس » جويس قوتها وروعته ويضفي عليها الاهمية البنائية والتكنيكية التي اكتسبتها .

راينا هنا مدى اهمية وضرورة مثل هذا البناء بالنسبة لرواية جويس ، فماذا كان هدف ونتيجة هذا التكنيك الذي اتبعمه محفوظ ؟ الحقيقة ان بناء نجيب محفوظ لروايته على نسق الاديان السماوية الثلاثة قد ادى الى جمود في الاحداث وتجزؤ في الشخصيات ، فقد

(٧) يذكر نجيب محفوظ في حديث له مع « فؤاد دواره » انه من الانجازات التي انماها في وقت فتوته قراءة « عولس » لجيمس جويس وشرحا الذي كتبه ستوارت جليبرت . ومما لا شك فيه ان هذه الرواية قد اثرت تأثيراً عميقاً على نجيب محفوظ .

عن لقاء رفاة بياسمينية : « وجدها في جلاب بنى ذي كلفة بيضاء حول الطوق و فوق نهضة التهدين ، وحافية ، وعارضة الساقين وجدها ايضا » . (٢٢٢) وعلى نفس النسق ، يقول قاسم امعه : « لن اقلع عما في رأسي ولو ملكت اتوقف كله وحدي » . (٣٦١) وهي صدى لما قاله النبي محمد من انه « لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على ان اترك هذا الامر ما تركته او اهلك دونه » .

هذا هو نقدي لهذه الرواية العملاقة ، اعتمدت فيه على ادوات المقارنة والتحليل ، وعلى من يختلفون معي في التفسير الرمزية التي قدمتها في هذه المقالة ان يتذكروا الفصل الذي كتبه الروائي الاميركي العظيم (هرمان ملفيل) في تحفته الخالدة « موبي ديك » Moby Dick بعنوان « العملة الذهبية » . ففي هذا الفصل (فصل رقم ٩٩ صفحة ٣٦٥ طبعة كولتر) يصف المؤلف عملة ذهبية مستديرة كبيرة الحجم دفها : « اهاب » بطل الرواية اسفل صارية سفينته ، وقد نقش على صفحاتها رسم يمثل الشمس تسطع على قمم ثلاثة جبال يجري امامها واد والى جانبها صورة ديك . وينظر اليها القبطان فيرى في هذه القمم كبرياء ، وفي الشمس عاطفته وفي الديك مجده . وينظر اليها مساعده فيرى في الصورة رمزا لتنازلت المقدس ، ويرى فيها ثالث علامة مسن علامات الفلك ، ويرى فيها آخر من عبدة النار رمزا لمعبوده الشمس فيخر ساجدا امامها ، وهكذا . ومفزي ذلك ان قوة الرمز في كثرة عدد التفسير التي يحتملها ، وبعد التشبيهات التي يمكن ان يقوم مقامها . ومهما تعددت الشروح والتفسيرات حول « اولاد حارتنا » ، ومهما تناقضت في مدلولاتها ومضمونها ، فان هذا لن يفرض من قيمة هذا العمل الفني الكبير الذي اضاف جديدا الى التراث الادبي العربي ، واسهم اسهاما كبيرا في الفن الروائي الحديث .

ماهر البطوطي

القاهرة

لقاء ادمه بالجبلوي يقول : « اقدام بطيئة وثقيلة استنارت ذكريات غامضة كرائحة زكية مؤثرة تستصفي على الادراك والتحديد » . (١١٠) وحين زحف عرفة في الفصل الاخير اتي منزل الجبلوي ليكتشف سره يقول : « وما زال في زحفه حتى برز رأسه من ارض الحديد داخل البيت الكبير . استقبل انفه شذا عجيبا كأنه خلاصة خلاصات مسن الورد والياسمين وانحاء مذاية في ندى الفجر » . (٤٩٠) ويهضي في قوله : « وبعد قليل شم رائحة بخور زكية افعمت فلبه فلما وجزنا غربا لم يدركه من سبب ولم يعد يشك انه في مخدع الجبلوي » . (٤٩٢)

وهذا التركيز في الوصف يؤدي الى خلق جو من الرمزية يغلف شخصية الجبلوي بحيث لا يكاد يعادله جو اخر فسي روايات نجيب محفوظ كلها من حيث البراعة الفنية . وهناك أيضا براعة فسي رسم شخصيات جبل ورفاعة وقاسم ، وخلق المسادلات الاليجورية للحدسات التي وقعت للانبيا ابتداء ، كجعل جبل يحترف مهنة الحواة ، اشارة الى حية موسى التي انطلقت نسفي . ورفاعة أيضا رسم بدقة بالغة ، فيكلمات قليلة يوحي المؤلف بعدد من الافكار التي ما كان يبالي مراده من الايحاء بها الا بالاستطراد والاسهاب ، اولا مزية الاليجورية التي تجعل المؤلف يرسم على مثال سابق يساعده في بث الاسكار التي يريدتها في ذهن القارئ الواعي ، حتى ان معتقد المسيحيين بنوة المسيح للاله يوحى به ، اذ يقول شاعر الرباب لرفاعة : « ما اشبهك بجندك » . (٢١٩) كما يذكر انه قد « تنوّل ايضا ان جسده (أي جثة رفاعة) ظلت ملقاة في انخلاء حتى حملها لجبلوي بنفسه فواراها التراب فسي حديقته القضاء » . (٣٠٢) وهو ما يقابل الاعتقاد في بقاء جثة المسيح في قبرها ثلاثة ايام قبل ان يرفعه الله الى السماء . كما عمد نجيب محفوظ ايضا الى صياغة بعض عبارات الجزء الخاص برفاعة في أسلوب يشابه أسلوب الانجيل تمام المشابهة ، منها « فسألته اطعم في المال الكثير ؟ فاجابها بانها في تطهير الحارة يرغب لا في المال الكثير » . (٢٣٤) وايضا

صدر حديثا :

الرواية الرائعة التي كتبها الروائي العربي الاول

الاستناد نجيب محفوظ

والتي طال انتظار القراء العرب لها

في كل مكان

أولاد حارتنا

- * أجرا وأخطر ما كتب مؤلف الثلاثية الشهيرة
- * الرواية التي أثار ضجة كبيرة لدى نشرها في جريدة « الاهرام » منذ سنوات فلم يتح لها أن تصدر في كتاب ...
- * نشرها « دار الاداب » اليوم في اخراج أنيق وطباعة فاخرة

الثن ٧٥٠ ق. ل.